قراءة في مشروع "الحوار الحضاري" للشيخ عبد العزيز الثعالبي من خلال كتابه روح التحرر في القرآن 1905.

طرفاوي أحمد
المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة – الجزائر

الملخص

يعد هذا العمل محاولة لتسليط الضوء على المشروع الحضاري للمفكر والمصلح التونسي الشيخ عبد العزيز الثعالبي(1875-1944)، من خلال كتابه روح التحرر في القرآن ، والذي ألفه عام 1905، حيث طرح من خلاله الأفكار المتعلقة بالحوار بين الغرب الأوربي والشرق الإسلامي ، وشروط تحقيق التفاهم بينهما من أجل بناء حضارة عالمية .

وقد تناولنا هذه المسألة من حيث تبيان طبيعة هذا المشروع ، حيث أن الثعالبي طرق هذا الموضوع من بابه الواسع ، ذلك أنه دعا إلى الحوار بين المسلمين من جهة واليهود والنصارى من جهة أخرى وحث على التعايش بين الأمة الإسلامية والأمم الغربية وخصوصا فرنسا.

كما عرضنا الأسس والمبادئ التي سطرها الثعالبي من أجل تجسيد ذلك المشروع الذي جاء به ، حيث كشفنا على قضية حرصه على تبيان المنطلق الديني لمشروعه ، وذلك من خلال اعتماده على النص الشرعي في القرآن الكريم ، وتأويله بشكل يتماشى مع أطروحاته ، ثم تعرضنا إلى ذلك المشروع بالنقد من زواياه المختلفة من أجل تبيان حقيقته .

الكلمات المفتاحية بالعربية

عبد العزيز الثعالبي – روح التحرر في القرآن- الحوار الحضاري .

RESUME

Ce travail est une tentative de jeter la lumiére sur le projet du dailogue civil entre l’est musulman et l’occdent eurpéen ,dans le livre (l’esprit libéral du coran) écrit par le penseur réformiste tunisien Abdelaziz Thaâlbi en 1905.

Dans cet ouvrage,il a posé les idées relatives au dialogue entre l'occident européen et l'est musulman et les conditions de se mettre d'accord entre eux pour arriver à une civilisation universelle.

On a traité ce problème à travers la nature du projet du dialogue fait par Thaâlbi dans cet ouvrage, consernant ce projet qui a ouvert le dialogue dans sa porte large.

Il appelle les musulmans et les religions occidentales(les juifs et les chrétiens) au dialogue.Ainci,il appelle les musulmans et les occidentaux et nottament La France au dialogue politique et à la coéxistence.

Puis il donne les principes à réaliser ce projet.On a découvert que Thaâlbi insistait sur l'éclairage du début religieux de son projet.

Cela se fait en s'appuyant sur le texte légéslatif de Coran et sa signification dans un sens parallele avec ses questions et ses positions puis on a critiqué ce projet dans ses differents coins pour éclaircir sa réalité

Mots-clés en français
Abdelaziz Thaâlbi - L'ésprit Libéral du Coran - dailogue civil .

مقدمة

يعتبر الحوار مسألة بالغة الأهمية ، وللحوار أشكال عدة ومستويات وغايات مختلفة على حسب تباين طبيعة الأفراد والأمم واختلاف منطلقاتهم ومجالات اهتماماتهم والظروف المحيطة بهم في كل عصر ، وقد سبق للفلاسفة المسلمين وان ناقشوا فكرة حوار الاديان.

وفي التاريخ المعاصر ظهرت فكرة حوار الحضارات وأخذت حيزا مهما في اهتمامات المفكرين والساسة ، ومن ذلك نجد أن المفكر الفرنسي روجي غارودي (Roger Garaudy)(1913-2012) قد طرحها من خلال كتابه: "من أجل حوار الحضارات" (Pour un dialogue des civilisations)[1] ، وكان ذلك مع نهاية سبعينيات القرن العشرين ، وخلال العقود الاخيرة طرحت هذه الفكرة بحدة على الصعيد الدولي [2] ،

1- Garaudy Roger , Pour un dialogue des civilisations, Editions Denoël, Paris ,1977.

2 - طرح موضوع حوار الحضارات والثقافات والأديان بشدة مع مطلع القرن الواحد والعشرين بالتوازي مع التوجهات السياسية الأمريكية الجديدة عقب أحداث 11 سبتمبر 2001 ، وتجلى ذلك من خلال بروز خطابات سياسية وفكرية عربية وأخرى غربية ، أنظر عنها مثلا :

وذلك بعد ظهور نظرية "صراع الحضارات" لصاحبها المفكر السياسي الأمريكي صمويل هنتنجتون (Samuel Phillips Huntington) ، من خلال كتابه الشهير الذي حمل عنوان " صراع الحضارات " (The Clash of Civilizations and the Remaking of World Orde)[1] والذي روج من خلاله لفكرة قيام صراع كبير يؤدي إلى حرب كبرى بين الحضارة الغربية والحضارات الشرقية .

وفي هذا السياق سنتطرق في هذا العمل إلى أحد نماذج فكرة "الحوار الحضاري" و التي طرحت مع مطلع القرن العشرين ، ويتجلى ذلك من خلال المشروع الذي طرحه الشيخ عبد العزيز الثعالبي من خلال كتابه روح التحرر في القرآن عام 1905، فماهي حقيقة ذلك المشروع ؟ .

1- نبذة عن الشيخ عبد العزيز الثعالبي

هو عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمان الثعالبي ، ولد في تونس العاصمة عام 1875، درس بجامع الزيتونة ، وعرف بدوره الإصلاحي والسياسي ، وكانت بداية نشاطه بتونس حيث أسس عام 1895 جريدة "سبيل الرشاد "، وكانت إسلامية المنهج[2] ،ثم انضم إلى حركة الشباب التونسي[3] ، وكانت إيديولوجية هذه الحركة في إطار الجامعة الإسلامية[4] ، ومن منطلق الدور الفاعل الذي قام به الثعالبي في هذه الحركة تم نفيه إلى فرنسا من طرف سلط الاحتلال عام 1912 [5]، ومنها اِنتقل إلى

- السيد ياسين ، وجون إسبوزيتو وآخرون ، خطابات عربية وغربية في حوار الحضارات ، ط1 ، دار السلام ، القاهرة ، 2004.

1 Samuel P. Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Orde, [En ligne] , consulté le 29 avril 2018. URL:

https://www.amazon.com/Clash-Civilizations-Remaking-World-Order/dp/1451628978

2 -Bessis Juliette , Maghreb Traversé du Siècle , L'harmattan ,paris ,1997, p11.

3 - عن هذه الحركة أنظرمثلا :

- Charles-André Julien, Colons français et Jeunes-Tunisiens (1882-1912). In: Revue française d'histoire d'outre-mer, tome 54,n°194-197, Année 1967, Hommage à Robert Delavignette. pp. 87-150.

4 - حول إيديولوجية هذه الحركة أنظر :

- Djait Hichem, la personnalité et le devenir arabo-islamique , paris , ed seul ,1975 ,pp 51-53.

5 - علي البلهوان، تونس الثائرة ، لجنة تحرير المغرب العربي ، القاهرة 1954، ص 44 .

البلدان الإسلامية إلى أن عاد مرة أخرى إلى تونس 1914 ، واقتصر عمله على النشاط السري ، نظرا لظروف الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918) والتي منعت معها سلطة الاحتلال العمل السياسي[1] .

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى 1918 ، عقد الثعالبي اجتماعا مع النخبة التونسية واتفقوا على تقديم عريضة باسم التونسيين إلى المؤتمرين بفرساي يطالبون فيها بتطبيق مبادئ الرئيس ويلسون الأربعة عشر[2] ، ومن أجل ذلك التحق الثعالبي بباريس ، وأثناء ذلك أصدر كتابه الشهير "تونس الشهيدة"، أوائل عام 1920[3] ، ثم ساهم في تأسيس الحزب الدستوري التونسي . غير أن سلط الاحتلال عملت مارست ضغوطات على الحزب ونشق عنه الحزب الإصلاحي ، والحزب الدستوري المستقل[4] ، وأمام هذا الوضع اضطر الثعالبي إلى الخروج من تونس في صيف 1923 ، ولم يسمح له بالعودة إلى وطنه إلى غاية 1937 ، ويومها كان الحبيب بورقيبة قد انشق عنه بعد ان أسس حزبا جديدا وهو الحزب الدستوري الجديد عام 1934[5] ، وأمام هذا الوضع حاول الثعالبي إعادة توحيد الحزب[6] لكنه لم يُوفق في ذلك ، فتراجع دوره السياسي، غير أن عمله الإصلاحي ظل مستمرا ، حيث تفرغ للكتابة والتأليف إلى غاية وفاته بتونس عام 1944.

2- طبيعة مشروع الحوار ومبرراته عند الشيخ الثعالبي .

---

1 - يوسف مناصرية ، الحزب الحر الدستوري التونسي (1920-1934) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 1988، ، ص 97.

2- Rodd Balek, la tunisie après la guerre , " afrique française" , N 07, 30 annés (juillet – aout 1920), PP 226-227.

3 - Michele Branicaird, le maghreb ou cœur des crises, imp des montsd du loyommais ,1994,p37

4 - Ali Mahjoubi ,les origines du mouvement national en tunisie, la société tunisienne des arts graphique,Tunis, 1982,pp 276-280.

5 - Habib Bourguba, La Tunisie et La France, M.T.E , SD , pp 554.

6 - حول هذا الدور أنظر:

- عبد العزيز لثعالبي ، الكلمة الحاسمة ،دار المعارف ، سوسة ، 1989.

إن وجهة نظر الثعالبي تجاه الغرب ، يمكن اعتبارها موقفا سياسيا داعيا إلى التقارب السياسي والحضاري بين الشرق والغرب إن صح التعبير ونكتشف ذلك من خلال كتابه " روح التحرر في القرآن " (L'ésprit Libéral du Coran)[1] ، وكان الثعالبي قد أصدر هذا الكتاب عام 1905 بباريس باللغة الفرنسية بمساعدة شخصيتين تونسيتين وهما المترجم "الهادي السبعي" ، والمحامي" سيزار بن عطار"[2] وورد في الطبعة الأولى لهذا الكتاب إهداء كان موجه لأحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي من الكتلة اليسارية يدعى فالي (*vallé*) وهذا دليل على تلك العلاقة التي كانت موجودة بين الثعالبي واليساريين الفرنسيين [3] ، وهذا يدل أيضا على أن ذلك الكتاب كان موجها للغرب ، أو كان موجها على الأقل للرأي العام في فرنسا ، وفي هذا الإطار نشير إلى أن الكتاب حمل دعوة صريحة للفرنسيين للسعي نحو تحقيق التقارب مع المسلمين ومساعدتهم على التطور الحضاري ، في سبيل تحقيق التقارب بين بني البشر ، وطالب الفرنسيين بمهمة التوجه إلى المسلمين بهذا النداء :((إننا أحفاد أولئك الذين أعلنوا حقوق الإنسان والمواطن ، وبما أنكم بشر مثلنا ، فاءنكم متساوون معنا وإخوان لنا ، فلنعمل معا في سبيل تقدم وطننا المشترك والسمو به إلى أعلى مراتب المجد والسؤدد))[4] .

ومن هنا أمكن القول بأن الثعالبي عرض مسألة الحوار مع الغرب من بابها الواسع وببعدها السياسي والحضاري ، بل وتجاوز ذلك إلى تحقيق الأخوة والتعاون والتقارب بين جميع الأمم .

1- مما يلاحظ ان الطبعة الاولى والأصلية للكتاب الصادرة في باريس عام 1905 تختلف في تنظيمها عن الطبعة الي صدرت عن دار الغرب الاسلامي ببيروت والتي اشرف عليها حمادي الساحلي ، وورد في الاولى لقب الثعالبي بالشكل (Ettéalbi) اما الثانية فورد بالشكل (Thaâlbi) ، وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على هذه الاخيرة أنظر:

- Abdelaziz Ettéalbi, L'ésprit Libéral du Coran ,Ernest Leroux éditeur,paris , 1905 , (100)p.

وانتظر كذلك :

Abdelaziz Thaâlbi, L'ésprit Libéral du Coran ,Dar- al- Gharb-alislami, 2 eme éd ,Beyrouth , 1985.

2 - حمادي الساحلي ، المرجع السابق ، ص 373.

3- Abdelaziz Thaâlbi, op.cit , p4.

4- ibid, p22.

وأثناء عرضه لهذه المسألة اعتمد الثعالبي على مجموعة من المبررات في إشهار دعوته إلى الحوار مع الغرب ، تتمثل أساسا في تخلف وضعف الشرق ، مقابل تفوّق الغرب وصعوبة مواجهته ، وبالتالي فإن التعايش معه والاخذ من حضارته يعتبر حتمية تفرضها ضرورة العصر ، انطلاقا من مبدأ وجوب الخضوع لحتمية الرقي والنشوء في الأمم ، من أجل تجاوز وضعية التخلف التي يعيشها العالم الإسلامي ، والتي تقتضي ضرورة التفاعل الحضاري ، وفي هذا الاطار يبدو بوضوح تأثر الثعالبي بالواقع المصري بعد حملة نابليون بونابرت 1798[1] ، إذ كان يتطلع إلى إعادة ذلك النموذج من العلاقة التي كانت قائمة بين "محمد علي باشا" وفرنسا ، بغية تحقيق ذلك - الازدهار الحضاري - الذي حققته مصر، كما أنه كان متأثرا بأفكار الثورة الفرنسية الداعية إلى المساواة والأخوة والحرية ، ووظف الثعالبي مبررات دينية ، من حيث ابرازه للإسلام على أنه دين عالمي يقوم على التسامح والحوار و يوصي بحرية الفكر واحترام جميع الآراء ، ويضمن حسبه -حرية المعتقدات- [2] .

3-أسس ومبادئ المشروع

وكان الثعالبي قد وضع أسساً ومبادئا لمشروعه الداعي إلى الحوار مع الغرب ، ومن ذلك أنه وظف لغة تتماشى مع طبيعة الفكر الغربي "البراغماتية" ، و من ذلك أنه ركز على إبراز مدى حاجة أوربا للعالم الإسلامي نظرا لمصالحها الكبرى في المنطقة ، ونّوه بخصوصيات الحضارة الأوربية والتي تعتمد على مبدأ الجهود الفردية لفائدة المصلحة المشتركة ، وعلى هذا الأساس فان المسلمين الذين يعدون بمئات الملايين يمكنهم المساهمة في تقدم الحضارة الإنسانية ، من منطلق أن الفكر الإسلامي له القدرة على تحقيق هذا التقدم مثلما حصل خلال القرون الإسلامية الأولى ، وعندئذ سيقضى على التباغض بين الأجناس وتتّحد كامل الشعوب المسيحية والإسلامية لبلوغ نفس الغاية والتي تتمثل الرّقي الاجتماعي[3] .

ومن زاوية أخرى حرص الثعالبي على تقريب المفاهيم الحضارية لغرض إحداث توفيق بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي ، حيث عمل على تحقيق مطابقة وموازنة

---

1 - عن تفاصيل الحملة الفرنسية على مصر عام 1798 طالع مثلا :

-Joseph-Marie Moiret ,Mémoires sur L'expédition d'Egypte ,Pierre Belfond ,Paris ,1984.

2- Thaâlbi, op. cit, pp67.

3-Ibid, P56.

بين النص القرآني ومبادئ الثورة الفرنسية ، فإذا كان مبدأ الحرية من أهم مبادئ وثيقة إعلان حقوق الإنسان والمواطن 1789 [1]، فالثعالبي يرى أن هذا المبدأ هو روح القرآن الخالصة ، ولذلك جعل من فكرة الحرية فكرة محورية في خطابه الموجه للغرب من خلال عرضه لقضايا حرية التفكير والرأي ، وحرية المعتقد ،وحرية المرأة[2]، ونبذه لمعوقات الحرية من جهة أخرى و المتمثلة في التعصب المذهبي والتصوف الطرقي والخرفات ، كما انه طابق بين مفهوم المساواة في الإسلام وما ورد في الفصل السادس من وثيقة "إعلان حقوق الإنسان والذي ينصّ على المساواة بين جميع المواطنين دون تمييز[3] ، ولغرض تقريب المفاهيم إلى الغرب نجده في بعض المواضع يستند إلى نصوص الإنجيل[4]، وأحيانا نجده يقدم مقارنات بين الواقع الإسلامي وما يقابله عند المسيحيين ، حيث اعتبر مكانة "الخلفاء الراشدين" عند المسلمين هي بمثابة "الآباء" عند المسيحيين!، وأنهم طبقوا مبادئ الديمقراطية المعروفة في الغرب ومن بينها "مبدأ الانتخاب"[5]، و في مواضع أخرى يوضح ماهية ووظيفة شخص الإمام عند المسلمين واختلافه عن الكاهن عند المسيحيين ، كما شبه دور الطرق الصوفية المنحرفة بدور المرتزقة الايطاليين خلال القرون الوسطى[6]

.

---

1 - عن هذه الوثيقة انظر مثلا :

- Lebed Nasser ,constitutions et documents politiques, 1er édition, Lebed,setif,2007 ,pp 11-30

2 - حول مسالة تحرير المرأة يلاحظ ان الثعالبي سبق الطاهر الحداد الذي تحدث بدوره عن تحرير المرأة في تونس في كتابه "إمراتنا في الشريعة و المجتمع" : أنظر عنه :

- Tahar Haddad , notre femme,lalégislation islamique et la société ,editions anep,rouiba,2012.

وطالع كذلك :

- Thaâlbi, op. cit ,pp 11-12.

3 ibid ,P62

4 - استند إلى "إنجيل متى" في دعوة يوحنا المعمدان للهود في صحراء فلسطين ، أنظر:

- إنجيل متى ، وانظر كذلك :

-Thaâlbi, op. cit ,P52.

5ibid ,pp22-24.

6- ibid,p34.

ومن الأسس الهامة التي اعتمدها الثعالبي في منهجه الداعي إلى الحوار تتمثل في تصحيح صورة الإسلام لدى الغرب من حيث تركيزه على إيضاح التناقض القائم بين حقيقة الإسلام والحالة الإسلامية الراهنة ، والتي تمثل انقلابا على تلك المبادئ النزيهة التي جاءت في القرآن ، بسبب التعصب المذهبي ، والتأويل غير الصحيح للقرآن ، وفي هذا الإطار ركّز على كشف انحراف معتقدات التصوف الطرقي[1] ، ومما يلاحظ أن الثعالبي اعتمد في هذه المسألة على كتابات شيخ الإسلام "ابن تيمية الحراني"(ت 728هـ/1328م)[2] ، ومن القواعد التي أرساها هذا المنهج هي نبذ التعصب تجاه الآخر، كمبدأ أساسي من بين مبادئ الحوار ، حيث دعا الغرب إلى ترك النزعة العدوانية الصليبية ، والتي ولدت أحقادا دفينة عند المسلمين تجاه الصليبيين بل وكل المسيحيين[3] ، وأشار إلى النظرة الدونية للغرب تجاه شعوب الشرق وفي ذلك دعوة للغرب إلى إسقاط نزعتة الاستعلائية[4] ، كما دعا من جهة أخرى المسلمين إلى ترك التعصب الناتج عن التأويل غير الصحيح للقرآن ، ومن هذا المنطلق جاء تأويله لمسالة الجهاد في الإسلام[5] ، حيث بلور فكرة أنّ الحرب في الإسلام الإسلام موجهة إلى "الأعداء السياسيين"ومعكري صفو الأمن العام ومثيري الفتن وليس تجاه متبعي الديانات الأخرى[6].

4- نقد المشروع

1- Ibid,pp50-57.

2- ibid ,p45.

3 - يفرق الثعالبي بين مصطلحي الصليبية والمسيحية ، لكنه يوظف مصطلح النصارى للدلالة على المسيحيين والعكس صحيح ، وذلك رغم اختلافهما ، حول دلائل هذين المفهومين ، طالع مثلا :

- عامر الحافي ، أصول تسمية النصرانية والمسيحية في ضوء القرآن ، "المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية" ،جامعة آل البيت ، الأردن، المجلد السادس ، العدد 01 ، 2010 ، ص ص 111- 123.

4- Thaâlbi, op. cit ,p5.

5 - الآيات التي اعتمدها الثعالبي في تأويله لمسالة الجهاد هي : 90، 191 ،192 من سورة البقرة ، ، 4 ،12 ، 123 من سورة التوبة ، أنظر:

- Thaâlbi, op. cit , pp71-77.

6 -Ibid,p68

وأمام هذا العرض أمكننا القول أن الثعالبي استطاع أن يضع تصورا فلسفيا للحوار بين الشرق والغرب ، وركز على تبيان المنطلق الإسلامي بالنسبة لهذه المسالة ، من حيث عرضه للنصوص الشرعية من القرآن الكريم التي تدل على تسامح الإسلام واعترافه بالنصارى واليهود ، وهذا الأمر لا جدال فيه كون الإسلام دين عالمي[1] ، غير أن هناك إشكالات عديدة تتعلق بفكر الثعالبي حول هذه القضية ، ومن ذلك صيغة الحوار التي طرحها والتي تجعل من المسلم – متعاون مخلص – مع فرنسا ، وهي صيغة تتنافى بشكل واضح و صريح مع ما ورد في القرآن ومن ذلك الآية ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ ... إلى آخر الآية)) [2] .

ثم إن القضية الكبرى التي قفز عليها الثعالبي أو أغفلها ، أو لم يكن يدركها في بداية نشاطه كانت تتمثل في حقيقة الغرب أو بالأحرى سلط الغرب والتي لم تكن مستعدة لقبول المنطق الذي عرضه ، فالغرب لا يمثل بالضرورة تلك المبادئ الحضارية التي حملتها شعارات الثورة الفرنسية والتي كانت محل إشادة من طرف الثعالبي ، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الآيات القرآنية التي عرضها بالنسبة للجهاد وراح يؤوّلها تأويلا - صحيحا – كما ادّعى تعتبر حجة عليه ، حيث أن جل هذه الآيات تحث على رد المعتدين ، وعصر الثعالبي كانت له هذه الميزة ، ذلك أن حضور الغرب في بلاد الشرق كان في إطار الغزو والعدوان الشامل و المنظم وهذا الأمر يحتم على المسلمين ويفرض عليهم القيام بجهاد الدفع [3] .

---

1 - عن عالمية الإسلام ، أنظر :

- عبد الوهاب عبد السلام طويلة ، ومحمد أمين شاكر حلواني ، عالمية الإسلام ورسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء ، ط1 ، دار القلم ، دمشق ، 2003.

2 - سورة الممتحنة ، الآية 1.

3 - الجهاد نوعان ، الأول هو جهاد الطلب أي طلب الكفار في بلادهم وهو فرض كفاية ، والثاني هو جهاد الدفع أي دفع الكفار من بلاد المسلمين وهو فرض عين ، للمزيد أنظر :

- جمال عبد الهادي ، محمد مسعود ، المجتمع الإسلامي المعاصر ، مطابع الوفاء ، المنصورة ، 1994 ، ص ص 37-39. وكذلك :

- محمد نعيم ، حقيقة الجهاد في الإسلام ، ط1 ، دار الأرقم ، 1984 ، ص ص 62-64

وإذا سلمنا بأن خطاب الثعالبي كان موجّهًا للرأي العام في الغرب ، وليس بالضرورة إلى سلطه الاستعمارية ، لا بدّ أن نعود هنا إلى صورة الإسلام والمسلمين عند الغرب في الفكر والاعتقاد الغربي ، فإذا كان حوار الأديان هو جوهر الحوار الحضاري أو الحوار مع الغرب ، فإن الفكر الغربي يحمل في طياته فكرة إقصاء الآخر وخاصة عند اليهود على حسب ما ورد في أسفار العهد القديم [1] ، ولذلك فإن الحوار لن يكون أمرا هيّنا ، وإن كان العهد الجديد في الكتاب المقدس يتضمن إشارات إلى التسامح مع الآخر[2]، إلاّ أن رجال الدين في أوربا خلال العصور الوسطى ومن خلال سلطانهم الواسع ، احتكروا تأويل الكتاب المقدس ، وحاربوا ولعنوا كل من جَهَر بحقيقة لم تقرها الكنيسة[3].

وإذا نظرنا إلى صورة الإسلام في الوعي الأوروبي خلال العصر الحديث نجدها قاتمة ومشوهة ومليئة بالأحقاد ، وخاصة بعد امتداد العثمانيين في البلقان ، فالإسلام في تصورهم دين العنف الذي يخدم المسيح الدجال ، وأن المسلمين معادون للعقل والعقلانية ، مما يستوجب مواجهتهم بحد السيف ، أما نظرة البروتستانتية والكالفينية إلى الإسلام فقد صاغها زعيم -الإصلاح الديني- مارتن لوثر في جداله العنيف مع الكاثوليكية حيث اعتبر الإسلام والبابا يشكلان من حيث الجوهر العدّوين اللّدودين للمسيح والكنيسة المقدسة[4].

---

1 - حول نظرة أسفار العهد القديم للآخر أنظر مثلا :

- محمد جلاء إدريس ، العلاقات الحضارية ، ط1 ، دار القلم ، دمشق ، 2003 ، ص 57 ومابعدها.

2- ورد في إنجيل متى " أحبوا أعدائكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات" أنظر:

- إنجيل متى في العهد الجديد ، الإصحاح الخامس ومابعده.

3 - توفيق الطويل ، قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ، ط1، الزهراء للإعلام العربي ، القاهرة ، 1991، ص14 .

4 - أليسكي جورافسكي ، الإسلام والمسيحية ، تر: خلف محمد الجراد ، دار المعرفة ، 1996 ، ص 83.

أما عن روّاد مايسمّى "بحركة الأنوار" خلال القرن الثامن عشر(ق18م) نجد الكاتب الفرنسي فولتير (voltair)[1] يتّهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما لا يليق بمقام الأنبياء والرسل ، وعلى العموم سادت فكرة سلبية عن الإسلام مفادها أنه منافي للتقدم والتطور ويمثل الرجعية ، خلال القرن التاسع عشر (19م) كما جاء في كتابات ارنست رينان (Ernest Renan) ولا بد أن نشير أيضا إلى أن الإسلام في الإدراك الاجتماعي الغربي خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر كانت له صورتين مزدوجتين : فمن جهة تم تصويره كتهديد معاد للمصالح الغربية دولا وأفرادا ،كونه عاملا أساسيًا في تحقيق الوحدة الإسلامية ، وكونه مصدر تعصب –البرابرة- المعادين لرسالة أوربا – التمديينة - ومن جهة أخرى رأت فيه الدوائر الإستراتيجية الغربية دين استقرار يمكن استخدامه في إطار طاعة الحاكم والمحافظة على السلطات الصديقة[2] ، و نشير أيضا إلى أن أهمّ نافذة اطّلع من خلالها الأوربيين على الإسلام تمثلت في كتابات المستشرقين ،وهذه الأخيرة لا تخلو من الزيف والتحامل على الإسلام والمسلمين فخلال القرن التاسع عشر تلون الاستشراق بألوان الفكر الغربي الحديثة القائمة على العنصرية ،والداروينية ، والإمبريالية، والفرويدية ، والماركسية [3] ، وهكذا فإن تصوّرات وأحكام الغرب على الإسلام ليست موضوعية بحكم طبيعة مرجعياته الفكرية والعقائدية ،والتي تؤول في النهاية إلى إشهار الصراع مع الشرق ، واستبعاد إمكانية الحوار.

ومما لا يمكن إغفاله في هذا الإطار هو أن القومية كانت هي عنوان العصر بالنسبة للغرب الأوربي بعد الثورة الفرنسية 1789 ، حيث أضحت عنصرًا مهمّا في العلاقات الأوربية مع الآخر ، وأضحت مذهبا فكريا وفلسفيا قائما بذاته وكثيرا

---

1 فولتير(Voltaire)(1694 –1778) هو فرانسوا ماري آروويه (بالفرنسية: François-Marie Arouet) ، ومن مؤلفاته"رسائل فلسفية"(Les Lettres philosophiques) عام 1734 ، للمزيد أنظر :

- Le petit Larousse Illustré , paris , 2011, p1762.

2 - أليسكي جورافسكي ، المرجع السابق ، ص 88.

3 - إدوارد سعيد ، الاستشراق ، ترجمة محمد عناني ، ط1 ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2006 ، ص 101.

ماحملت هذه الفكرة نغمة الاحتقار والازدراء نحو الآخر والاستعلاء ، والروح العدوانية والرغبة في السيطرة والقهر[1] .

وإذا كانت الثورة الفرنسية من زاوية الفكرة القومية مرحلة ميلاد الوعي القومي والشعور بكون الأمة الفرنسية تحمل رسالة إلى العالم والتي عبرت عنها الثورة من خلال شعاراتها الثلاث " الحرية – المساواة – والإخاء " ، فإن هذا التصور كان ظرفيا فقط إذ لم يكن له وجود في الواقع ، وشهدت فرنسا مع نهاية القرن التاسع عشر اتجاها قوميا ذو نزعة استعمارية يتزعمه جول فيري وخلفاؤه[2] .

ومن هنا يمكن القول بأن مراهنة الثعالبي على الفرنسيين في تحقيق التقارب مع المسلمين ومخاطبتهم بمبادئ ثورتهم أمر لا جدوى منه ، وفي هذا السياق أيضا نرى أنه أساء فهم العلاقة بين فرنسا و"محمد على باشا" والي مصر ، حيث أنّ تلك العلاقة لم تكن بذلك الشكل الذي صوّره كما سبق ذكره ، فعلاقة محمد علي بفرنسا يمكن اعتبارها قاعدة أساسية في فهم العلاقة بين الشرق والغرب في الفترة المعاصرة ، ذلك أن الغرب صدّر الحداثة إلى مصر أو لنقل لحكومة "محمد علي باشا" ، ليس من أجل نقل الحضارة إلى الشرق أو لتقوية الدّولة المصرية لتصبح دولة حديثة ، ولكن من أجل غايات تتمحور حول احتواء مصر بشكل يؤدي إلى خدمة مصالح الغرب الامبريالية وضرب الوحدة الإسلامية من خلال فصل مصر عن الدولة العثمانية ، ثم الوصول إلى احتلالها في النهاية ليتبخر بذلك مشروع الدولة المصرية الحديثة التي أقامها "محمد علي" ، ومن هنا أمكننا القول بأن الثعالبي ورغم إدراكه للتعصب الأوروبي ، إلا انه لم يكن على دراية عميقة بنظرة الغرب للآخر، فمنطق رفض الآخر عند هذا الأخير كانت أكثر مما يتصوره .

ثم إن هناك ظروفًا مختلفة ساهمت في تكوين هذا النوع من الخطاب ، ومن بينها انبهار الثعالبي في مرحلة شبابه بالحضارة الغربية ، ودليل ذلك أن موضوع العلاقة مع الغرب سجّل حضورًا له في فكر الثعالبي منذ بداية ظهوره على الساحة

---

1 - عن الفكرة القومية وتطورها في الفكر الأوربي أنظر:

- جمال قنان ، دراسات في المقاومة والاستعمار ، ،منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، دت ، ص ص 189- 221.

2 - نفسه ، ص 215.

السياسية في تونس ، ففي مقالته الافتتاحية[1] في أوّل جريدة له وهي "سبيل الرّشاد " أي عام 1895 أشاد الثعالبي بالمبادئ الحضارية التي جاءت بها الثورة الفرنسة ، فانطبقت عليه بذلك نظرية " المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب"[2] ، كما تاثر كذلك بسياسية الاشتراكيين الفرنسيين بتونس الداعية إلى التقارب مع المسلمين ، وكان من أبرز هؤلاء"ألبير لوزان" والذي كان يروّج لفكرة التوفيق بين الأديان [3] .

وهذه الفكرة الاخيرة كانت قد طرحت أيضا من طرف رواد الاصلاح ومن بينهم محـمد عبده[4] كما ظهر ت فكرة التقارب الاسلامي الفرنسي في الجزائر في أوساط بعض – رجال النخبة - مع مطلع القرن العشرين حيث برزت شخصية "سي محمد ابن رحال"، والذي قدم عام 1901 بحثا حول موضوع "مستقبل الاسلام"[5] والذي خلص من خلاله إلى أن الاسلام يتبع نبض الحضارة العالمية ماعدا الجانب العقائدي، وسار على نفس المنهج " عبد الحليم بن سماية " ، حيث قدم هذا الاخير عام 1905 بحثا الى مؤتمر المستشرقين بالجزائر ، قال فيه ان الاسلام يتماشى مع مبادئ الثورة الفرنسية الثلاث ، والمتمثلة في (الحرية ، المساواة ، والاخاء)[6] ، وفي ذات السياق أيضا قام بول ميلون (Paul Melon) وهو عضو المجلس الاستعماري الاعلى بالترويج لفكرة الادماج والتقارب بين فرنسا ومستعمراتها ، وذلك من خلال نشره كتاب سنة 1903 تحت عنوان : " المشكلة الجزائرية والتونسية " (Problèmes Algériens et Tunisiens, ce que disent les chiffres)[7] .

---

1 - طالع نص المقال في ملحق كتاب : أحمد خالد ، الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي وإشكالية فكره السياسي ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 2001، ص 376.

2 - عبد الرحمان ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ،ط1 ، تحقيق عبد الله محمد الدرويش ، دار يعرب ، دمشق، 2004 ، ص 283.

3- الخرفي ، المصدر السابق ، ص 142

4 - حول هذه المسالة أنظر:

- محمد رشيد رضا , تفسير المنار,ج1 ، دار الفكر, بيروت , ط 1 ، 2007 .

5- L'avenir de l'islam , Enquête par Edmond Fazy., revue de politique extérieure ,1901 , p 550. [En ligne] , Source gallica.bnf.fr , consulté le 03 mai 2018.

6 ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء6 ، ط1 ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1998 ، ص 424 .

7 -Paul Melon ,Problèmes Algériens et Tunisiens, ce que disent les chiffres ,Augstin Challamel Editeur , paris,1903.

فهذه المؤشرات تلمح الى ان الثعالبي كان على اطلاع بسياسية العصر فعمل على مسايرتها من خلال الافكار التي طرحها في كتابه، خاصة اذا علما بأنه كان بين سنوات (1898-1902) قد تردد على الأستانة والقاهرة واتصل برجال الإصلاح المصريين وعلى رأسهم "محمد عبده"[1] ، ثم غادر مصر متوجها نحو الجزائر والمغرب مرورا بتونس عام 1902 وكانت الجزائر وقتئذ تحت حكم الوالي العام الفرنسي "جونار" ، وهو أيضا من دعاة التقارب مع المسلمين واحتوائهم في حدود ماتسمح به مصالح الاستعمار ، ومما يستوجب الاشارة اليه هو أن الموضوعات الرئيسة لكتاب روح التحرر في القران والمتعلقة بالخصوص بقضايا الجهاد ، والمرأة ، والعلاقة بين الاسلام والنصارى ،هي نفسها الموضوعات التي كان كانت محور اهتمام ودراسة من طرف الفرنسيين وذلك منذ احتلالهم الجزائر 1830 وهي المسائل التي بحثوا من خلالها قضايا التوافق بين الاسلام والحضارة الغربية ، وهو نفس السبيل الذي سلكه الثعالبي .

خاتمة

إن أطروحات الثعالبي حول الحوار مع الغرب ، والتي ارتبطت خصوصا بكتابه روح التحرر في القرآن مع مطلع القرن العشرين ، أثرت فيها ظروف وعوامل مختلفة ، مما جعل آرائه متناقضة و دلائله واهية ، ورغم أنه وضع منهجًا فكريًا لهذه المسالة من منطلقات دينية وحضارية ، وحرص على تبيان أهمية التقارب والتعاون بين الشرق والغرب من حيث أنه يعتبر ضرورة حتمية من اجل بناء الحضارة الإنسانية ، إلاّ أن فلسفته كانت ذات مسحة سياسية ونزعة انهزامية ، وسارت وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، ويمكن القول أيضا أن مسالة التقارب بين الشرق والغرب من هذه الزاوية كانت ضمن مشروع السياسة الغربية الاستعمارية ، وحاول الثعالبي على غرار الكثير من نخب العالم الاسلامي مسايرتها والتكيف معها لأغراض سياسية ، كما أن فكرته لم تكن بمعزل عن الحالة السياسية والثقافية السائدة آنذاك

1- يوسف مناصرية ، المرجع السابق ، ص 88.